اذا برّ ولاتهُ بالرعيّة و بنوا معالم العلم ورفعوا شأن العلماء فان طلاّب الصناعة يكثرون حينئذٍ و يدرسون العلوم المؤهّلة لها و يتتبعون كل ما استنبطهُ الاوربيون و يوسعون نطاقهُ

ماضي الهند وحاضرها

سألنا سائل كريم في الجزء السابق قال "ان مسألة الاستعمار من اهم المسائل التي يتحاور الناس فيها الآن . واهم المستعمرات لدينا الهند والجزائر فنرجو ان تكتبوا مقالة مستوفية في ما يتعلّق بهاتين المستعمرتين من جهة الاستعمار واما اثّر فيها من ترقٍّ وتمدنٍ وراحة وتعب فان نفوس الراغبين في الوقوف على الحقائق متشوفة الى ذلك نظراً الى ما يعهدونهُ في المقتطف من صدق اللهجة وحسن البيان" .

فرأينا ان البحث في هذا المطلب لا يخرج عن موضوع المقتطف ولا هو مما ثقلُ فائدتهُ حتى يصمّ الاعضاء عنهُ . لكنهُ خشن المسالك لا يؤمن فيهِ العثار ولا سيما اذا اعتمدنا على ما تقولهُ الاحزاب السياسيّة فرأينا ان نسلك اقرب الخطط الى العدل وابعدها عن التشيّع وذلك بان نعمد الى معجمات البلدان القديمة ونلخص ما نشر فيها عن تلك البلاد عند اول دخولها في كنف الحكومة الانكليزية من حيث عدد السكان وحالة العلم والصناعة والصادر والوارد . وننظر في المعجمات الحديثة ونرى ما بلغتهُ هذه الاشياء فيها لنقابل بينها ثم نستنطق عالماً من علماء تلك البلاد المشهود لهم بالعلم والفضل والبعد عن التشيّع وتمهيداً لذلك نقول

الهند بلاد واسعة الاطراف وهي بعد الصين اعمر بلدان المسكونة اي اكثرها سكانها مساحتها مليون و٣٥٠ الف ميل مربع وعدد سكانها الآن ٢٨٧ مليون نفس اي اكثر من سكان القطر المصري اربعين ضعفاً . ستون مليوناً منهم يدينون بدين الاسلام ومئتا مليون يدين البراهمة او دين الهنود ومن بقي يأتي الديانة البوذية او غيرها من الاديان

والبلاد من اقدم البلدان يمتد تاريخ عمرانها نحو ثلاثة آلاف سنة فتحها المسلمون منذ نحو تسع مئة سنة وتعاقبت عليها دول منهم . وتردّد الاوربيون على سواحلها واستولوا عليها وكانت سلطة الفرنسويين فيها في القرن الثامن عشر تنازع سلطة الانكليز وكان للانكليز شركة تجارية انشأت في بلاد الهند منذ سنة ١٦٠٠ وجعلت مقرها في كلكتا ومدراس وبباي واخذت توسع نفوذها رويداً رويداً حتى استولت على جانب كبير من الهند . وبلغ عدد

جنودها ٢٢٧ الفاً . وسنة ١٨٥٧ عصى عليها نحو تسعين الفاً من هؤلاء الجنود واخذوا مدينة دلهي واقاموا واحداً من سلالة المغول سلطاناً عليهم وامتدت الثورة في بلاد مساحتها اكثر من مئة الف ميل مربع وسكانها اربعون مليوناً . وكان عدد الجنود الاوربية حينئذٍ ٤٠ الفاً فقط لكن الحكومة الانكليزية بادرت الى ارسال الجنود من انكلترا وتجنيد الوطنيين المقيمين على ولائها فتمكنت من اخماد نار الثورة في نحو ستة اشهر ومن استئصالها تماماً في سنة من الزمان . ولما اخمدت الثورة وتوطدت اركان الامن أُلغيت جمعية الهند الشرقية وجعلت البلاد تحت سلطة الحكومة الانكليزية ثم اضيفت اليها بلاد برما وسميت ملكة الانكليز سلطانة على الهند سنة ١٨٧٦

وكان عدد سكان الهند سنة ١٨٥٠ نحو ١٦٥ مليوناً وكان التعليم فيها في حالة يرثى لها من التأخر وكانت قيمة الصادر من البلاد سنوياً نحو سبعة عشر مليوناً من الجنيهات . وبلغ عدد السكان سنة ١٨٧٠ نحو ١٩٠ مليوناً ودخل الحكومة نحو خمسين مليوناً من الجنيهات وقيمة الصادر من البلاد نحو ستين مليوناً . وبلغت الاموال التي انفقت على مدّ سكك الحديد حتى سنة ١٨٧٦ نحو ٩٧ مليوناً من الجنيهات وعدد المدارس ٥٣٧٦٤ وبلغ عدد التلامذة حينئذٍ ١٦٦٨٠٢٦ ونفقات مدارس الحكومة مليون جنيه في السنة

وقد بلغت مساحة بلاد الهند في احصاء سنة ١٨٩١ مع بلاد برما مليوناً و٥٦٠ الف ميل مربع وبلغ عدد سكانها حينئذٍ ٢٨٧ مليوناً . ويبلغ ايراد الحكومة السنوي الآن ٩٧ مليوناً من الجنيهات وقيمة الصادر من البلاد ١١٧ مليوناً وعدد المدارس ١١٧٥٩٠ وعدد التلامذة ٤٠٨٢٠٣١ وينفق على التعليم في السنة ثلاثة ملايين وربع من الجنيهات

وهذه الزيادة في عدد السكان ليست كلها من النمو الطبيعي بل بعضها من توسيع نطاق البلاد الخاضعة للحكومة الانكليزية ولكن الزيادة من الوجهين قليلة كما يرى من هذا الجدول وقد ذكرنا فيه بعض اقسام الهند وعدد سكانها سنة ١٨٤١ و١٨٧١ و١٨٩١ وهي كما ترى

	١٨٤١	١٨٧١	١٨٩١
بنغالا	٤٨٠٠٠٠٠٠	٦٠٥٠٠٠٠٠	٧١٣٢٧٠٠٠
اغرا واودي	٢٩٨٠٠٠٠٠	٤٢٠٠٠٠٠٠	٤٧٠٠٠٠٠٠
بمباي	١٠٥٠٠٠٠٠	١٦٣٤٠٠٠٠	١٩٠٠٠٠٠٠
والجملة	٨٥٢٠٠٠٠٠	١١٨٨٠٠٠٠٠	١٣٧٠٠٠٠٠٠

فزاد عدد السكان في هذه الممالك من ٨٥ مليوناً الى ١٣٧ مليوناً وذلك في خمسين سنة

وهذه الارقام المنقولة عن كتب الاحصائيين لا عن اقوال السياسيين كافية وحدها للدلالة على الارتقاء المستمر الذي ارتقته بلاد الهند منذ خمسين سنة الى الآن لكننا رأينا ان لا نكتفي بذلك بل نذكر طرفاً مما يقوله اهل الهند انفسهم في معرض لا ينتظر ان يشيعوا فيه للانكليز ولا لغيرهم

لما شاع امر الحوادث الارمنية واظهر الانكليز رغبتهم في الانتصار للارمن كتب احد علماء الهند في جريدة القرن التاسع عشر الانكليزية يحض الانكليز على الاخذ بناصر الحكومة العثمانية والمدافعة عن حقوق مولانا السلطان الاعظم اكراماً لمسلمي الهند الذين ينظرون اليه نظراً دينياً وذكر في عرض الكلام حالة بلاد الهند والنعمة التي تنعمها قال

"لا شبهة في ان انكلترا دولة مسيحية ولما من هذا القبيل ميل الى قوم وميل عن قوم ولكنها لا تنحصر في كونها دولة مسيحية بل في دولة اسلامية ايضاً واعظم دول الاسلام في المسكونة وهذا القول قالهُ غيري قبل الآن ولكن ما اقلّ الذين يدركون مؤداهُ

"فان من يبحث عن الامم الذين تتألف منهم السلطنة البريطانية يعجب من وفرة المسلمين الخاضعين لجلالة الملكة. فاذا اغضينا الطرف عن المسلمين المخرقين في البلدان الانكليزية في اسيا وافريقية واستراليا يبقى في سلطنة الهند وحدها سبعة وخمسون مليوناً من المسلمين بحسب الاحصاء الاخير ولذلك فالمسلمون الخاضعون لجلالة الملكة لكتوريا اكثر من المسلمين الخاضعين لسلطان الاتراك ولشاه العجم معاً

"والمسلمون في بلاد الهند اهم عنصر من العناصر الخاضعة لجلالة الملكة اذا استثنينا الاوربيين الذين هم اهل السيادة في تلك البلاد. وهم (اي المسلمون) اصدق امم الهند ولاء للدولة الانكليزية واقربهم لاقتباس اساليب العمران الاوربي لانهُ يباح لهم الاطلاع على العلوم والفنون والمذاهب الفلسفية. واذا استثنينا القطر المصري رأينا انهُ لا يباح للمسلمين ان يقولوا ما يشاؤون ويكتبوا ما يريدون الاَّ في بلاد الهند. وهذه الامور تجمع كلمتهم وتجعل بينهم نوعاً من الوئام والالتئام لا مثيل لهُ الآن في سائر المشرق. ولقد نهضوا نهضة تُذكر فتشكر في الاعوام الخمسة والعشرين الاخيرة بما كتبهُ العلاَّمة الاماجد السيد احمد خان بهادر وفاما محسن الملك مهدي والحلي الشاعر الوطني البليغ. وحاول كثيرون منهم كسر قيود التقليد التي تحول دون الارتقاء وبث المعارف الاوربية الجديدة. وهذه النشأة حديثة ولا نقول انها وفت بالمراد ولكن ثمراتها لا تخفى على احد. وقد انشأ المسلمون مدرسة كلية لتعليم شبانهم في البنغار فيها الآن اكثر من ثلاثمئة شاب وهم يعقدون مؤتمرات كثيرة في جهات مختلفة

يبحثون فيها عن الاساليب التي يمكن استخدامها لنشر العلوم والفنون الاوربية في بلادهم ويحررون مئات من الصحف المحلية وينشرون كثيرًا من المقالات والرسائل . ويقال جملة ان كثيرين منهم يبذلون الجهد في اصلاح شؤون الامة الاسلامية في بلاد الهند ولهم من حكومة الهند ورجالها اكبر نصير . وقد نتج من ذلك ان كثيرين من مسلمي الهند امتازوا حديثًا في عالم العلم والانشاء مثل السيد محمود من اعضاء مجلس الله اباد العالي الذي اشتهر بعلومه الفقهية ومثل القاضي امير علي مؤلف كتاب روح الاسلام (باللغة الانكليزية) وهما من نتاج التربية الانكليزية في بلاد الهند ولهما المقام العالي بين كتاب اللغة الانكليزية وقضاة الشعب الانكليزي

"والطلبة في مدارس الهند يدرسون اللغة الانكليزية ويقرأون كتب المؤلفين وخطب السياسيين كما يفعل ابناء الانكليز في بلادهم فيعجبون بكتابات ثكري وكارليل ويكتبون في وصف تنيسون واكولي ويدرسون كتب هربرت سبنسر وداروين ومقالات مورلي وهربسون . وبعضهم يتتبع المناظرات في مجلس النواب الانكليزي ويقرأ خطب غلادستون وسلسبري وروزبري وهاركورت فيفهمون مغازي السياسة الانكليزية ومرامي السياسة الاوربية . ويقدرون الكتابات الانكليزية قدرها مثل الرجل الانكليزي الذي يطالع الصحف اليومية والمجلات الشهرية . ويحسبون انهم يعرفون الغرض المقصود من السياسة الاوربية ولو لم يدركوا تمامًا مقاصد السياسة الانكليزية . ويتهافتون على قراءة كل ما يُكتب عن المسلمين في اقطار اوربا واميركا لان جرائدهم تترجمهُ لهم فيمدحونهُ او يذمونهُ حسب ما يرونهُ ممدوحًا اومذمومًا"

ثم ذكر الكاتب ان عامة المسلمين في بلاد الهند ينظرون الى سلطان آل عثمان نظرًا دينيًا لا سيما وان سلطنتهُ تشتمل على مكة والمدينة مولد الرسول ومدفنهِ ولانها قائمة حيث كانت عواصم الخلفاء الاولين ولان اكثرهم من البيئة مثل سلاطين آل عثمان ولذلك يجدر بالحكومة الانكليزية ان تعتبر ذلك الى ان قال

"ولا اقول ان مسلمي الهند يحسبون انفسهم مرتبطين بالسلطنة العثمانية حتى يعصوا على الحكومة الانكليزية اذا اغتنمت فرصة ضعف تركيا فعجلت سقوطها فان كل من عرف مسلمي الهند وعاشرهم يعلم ان ذلك ضرب من المحال لانهم خاضعون لانكلترا عن اقتناع وعن انتفاع وهم مرتفعون بحالتهم الحاضرة ولو لم تكن حالة نجيح تام فانهم آمنون في ظل الحكومة البريطانية وحريتهم الدينية مرعية تمام الرعاية وسبل التقدم والارتقاء ممهدة لهم اكثر مما هي ممهدة لغيرهم من مسلمي الارض . ولا يرتاب احد في ولائهم التام للسدة الانكليزية بل هم اشد شعوب الهند ولاء لها ولكن اذا تألبت دول اوربا على الدول الاسلامية كما نطقت

في حروب الصليب لم يبقَ مسلم الهند على ما هم عليهِ الآن من الخضوع والسكينة "

ثم انتقل الى لورد غلادستون فاخرب عن بلاغة في الانشاء ونباهة في المقاصد يندر وجودهما في ابلغ كتَّاب العصر حتى اننا ترددنا في ان نبيح لقرائنا ترجمة اقوالهِ لئلاَّ نخسر شيئاً من فصاحتها قال

" ويستحيل ان يُكتب شيء عن مسألة انكلترا وتركيا وما يشعر بهِ مسلم الهند من غير ان يُذكر اسم غلادستون . ومعاذ الله ان اقول كلمة واحدة ضد هذا الرجل الجليل والسياسي المحنَّك فانهُ من المعجبين اشد الاعجاب بزعيم الاحرار العظيم الذي لم يقم مثلهُ في هذا القرن . والله يشهد اني اشد اعجاباً بهِ من كل مسلم فان اخلاقهُ الطاهرة الزكية ونصاحتهُ ألِّفي تخلب الالباب والخدم ألِّفي خدَّم بها حزب الاحرار في انكلترا تجعلهُ المحل الاول من الشرف والاعتبار في تاريخ القرن التاسع عشر . وعندي ان اعظم عَمَل عَمِلهُ في حياتهِ هو انهُ بتَّ في المسائل السياسيَّة مبدأً ادبيًّا فاضلاً كانت مجرَّدة صهُ وقرَّر المبادىء السامية حيث كانت الاعمال تعمل جريًا على مقتضى الحال . ولهُ عذر في الموقف الذي وقف فيهِ تجاه تركيا لان كل ما فعلهُ وكتبهُ وقالهُ ضدها يُنتظر من رجل مثلهُ حارّ العواطف كثير التأثر شديد التديُّن متمسك بما يقولهُ زعماء مذهبهِ وهو ان كل من ليس مسيحيًّا فهو ملحد ولا يجوز لهُ ان يدنس اوربا بقدميهِ . . . . ولكن من كان كذلك يجب ان لا تكون لهُ سلطة سياسيَّة على عقول الملايين — يجب ان لا يكون وزيرًا لسلطنة عظيمة مثل السلطنة الانكليزية — يجب ان يحترس في ما يكتبهُ وما يقولهُ لئلاَّ يغيظ الملايين الكثيرة من اخوتهِ في الرعوية الانكليزية "

والباحث عن الحقائق يرى من خلال هذه الاقوال السديدة ما يدلُّ دلالة واضحة على ان عقلاء الهند حتى الذين زال منهم الملك راضون عن الحكومة الانكليزية معترفون بمزاياها ذاكرون جميلها بالشكر حاسبون ان بلادهم اوفقت في عهدها

وما تقدم لا ينفي وجود الشاكين والمتذمرين ولكن الشكوى ليست دليلاً على البلوى كما اتيًا غير مرَّة بل ان شكوى الناس تزيد بزيادة حريتهم وراحتهم كما ان الجسم المترفه يشكو من اقل الم

هذا ما يظهر لنا من مطالعة كتب الاحصاء واقوال الكتَّاب ولكننا نقول كما قلنا مرارًا انهُ خيرٌ لامم المشرق ان تستقلَّ بنفسها على شرط ان يكون التعليم والتهذيب قد انتشرا في ربوعها او ان يكون لها ولاة وحكَّام يبرُّون بالرعية ويسعون في انجاحها والاَّ فالاستقلال اسم بلا مسمًّى وضغث على ابَّالة